

الفصل التاسع (خاتمة)

من البقاء إلى الاستقرار إلى النجاح إلى المغزى من الأسرة





الفصل التاسع: (خاتمة)



من البقاء إلى الاستقرار إلى النجاح إلى المغزى من الأسرة

مقدمة:

الفصول السبعة السابقة هي ما مررنا به خلال كل عادة من العادات السبع، ولا بد أن نتشارك الآن في الصورة الكبرى في المنظور الشامل لتجديد الأسرة، وكيف أن تلك العادات تعمل معًا بشكل يمكن أن يحقق هذا الأمر.

بدايةً نعرض قصة مذهلة عن ملحمة كاملة لإحدى النساء، لاحظ كيف أن هذه التجربة تكشف عن روح وثابة وشجاعة، جعلت قوى الطبيعة تقف في صفها، ولاحظ ذلك التأثير الذي أحدثه ذلك المنظور الشامل عليها وعلى أسرتها وعلى المجتمع: «في وقت ما كنت في التاسعة عشرة من عمري، وكنت مطلقة ومعني طفل عمره عامان، وكنا نمر بظروف في غاية الصعوبة، لكنني كنت أتمنى أن أحقق لطفلي أفضل حياة ممكنة، كنا نمتلك القليل جدًا من الطعام، لدرجة أنني وصلت لحد أنني كنت أقدم هذا الطعام لابني ولا أتناوله، وفقدت كثيرًا من وزني لدرجة أن إحدى زميلاتي في العمل سألتني إذا كنت مريضة، وفي النهاية سقطت مغشيًا عليّ في العمل، فأبلغتها بظروفي، فألحقتني ببرنامج مساعدة الأسر ذوي الأطفال المحتاجين، وهو ما مكنتني من حضور دروس في إحدى الكليات بالجامعة».

عند هذا الحد كان الحلم ما زال يطارد ذهني، وقد واثاني عندما كنت في السابعة عشرة وحاملًا في ابني، هذا الحلم هو أنني سألتحق بالكلية، ولم تكن لدي أي فكرة عن كيفية تحقيق هذا الحلم، في السابعة عشرة لم أكن أحمل حتى شهادة الثانوية العامة، لكنني عرفت فقط أنني سوف أحدث اختلافًا في حياة الآخرين، وتمنيت أن أكون بمثابة الضوء للآخرين الذين يواجهون ظلامًا مثل الذي أواجهه، هذا الحلم كان قويًا للغاية لدرجة أنه ساعدني على اجتياز كل شيء، بما في ذلك عمل كل ما كان ضروريًا للتخرج من المدرسة الثانوية، وأنا في التاسعة



عشرة كنت لازلت لا أعرف كيف سيتم تحقيق حلمي، وكيف يمكنني مساعدة أي أحد، في حين أنني متضررة إلى حد كبير وأحتاج -أنا نفسي- لمن يساعدني؛ لكنني شعرت بأني منقادة -بسبب هذا الحلم- وبسبب ابني الذي كنت أريد له حياة طيبة، كنت أريد أن يحظى بالطعام واللباس، وفناء واسع يلعب فيه، وأن يتلقى التعليم المعقول، ولم يكن بمقدوري توفير هذه الأمور له دون أن أعلم أنا أولاً؛ لذلك فقط وضعت تعريفاً لمشكلتي: إذا استطعت فقط الحصول على درجة جامعية وتكوين مال، فستكون لنا حياة طيبة، وذهبت إلى المدرسة وعملت عملاً شاقاً (هذه تسمى درجة البقاء).

وعندما بلغت اثنين وعشرين عاماً تزوجت للمرة الثانية، وهذه المرة كان رجلاً رائعاً، وأنجبنا ابنة صغيرة جميلة، وتركت العمل بالمدرسة لكي أتفرغ لطفلي الصغيرين، وتمكنا أن نجعل أحوالنا المالية ميسورة (هذه درجة الاستقرار)، لكنني كنت لازلت قلقة من الوحش المسمى الجوع، لذا عندما كبر أطفالي قليلاً كان الأمر بالنسبة لي ببساطة إما الحصول على الثانوية العامة أو الإخفاق التام، وفي هذا الوقت كان زوجي بمثابة الأم الرئيسة للأولاد عندما كنت أذهب للمدرسة، وفي نهاية الأمر أتممت شهادة الثانوية العامة، ثم شهادة أخرى هي درجة البكالوريوس في إدارة الأعمال بعد دراسة لمدة أربعة أعوام.

وكان هذا مساعداً لنا بشكل كبير فيما بعد عندما فقد زوجي عمله بالمصنع، فقد كنت قادرة على مساعدته من خلال عملي بالكلية، فتعليمي أنقذنا مادياً، وأثناء سنوات الكساد دفعت زوجي للحصول على البكالوريوس والماجستير، وأصبح يعمل مستشاراً، وقال: إنه لا يتصور أنه كان بوسعه أن يفعل كل هذا بدون دعمي (هذه درجة النجاح)، ولبعض الوقت كنت مشغولة عن حلمي، كنت مشغولة للغاية بالعمل ورعاية الأسرة، ثم فكرت: لقد فعلتها، لقد حصلت على الشهادة، ولدي أسرة ناجحة، يجب أن أكون سعيدة، لكنني عندئذ أدركت أن حلمي كان يشمل مساعدة الآخرين، وهذا لم يصبح جزءاً من حياتي بعد.

ولذا فقد عرضت في لقاء تكريم لي نجاحي عندما اجتمع عدد من سيدات الكلية، وقررن تأسيس صندوق للمنح الدراسية أطلقن عليه اسم إحدى السيدات التي كانت أكبر المساهمات، والتي كانت تؤمن بأنك إذا علّمت امرأة فسوف تحدث تأثيراً كبيراً في حياتها، وليس فقط في حياتها، ولكن في حياة أطفالها كذلك .. لقد كنت سعيدة مما حدث، وتصورت



أنني قمت بدوري في مساعدة الآخرين، ولكن بعد ذلك بوقت قصير انضمت لبرنامج تنموي خاص بالمرأة؛ حيث أتيحت لي فرصة كي أشارك الأخريات قصتي، وإحدى السيدات هناك اقترحت فكرة ضرورة أن نساهم كلنا في منحة دراسية لإحدى السيدات من ذوات الدخل المنخفض، ووافقنا جميعاً على أن تساهم كل منا بمبلغ 125 دولار سنوياً للقيام بذلك.

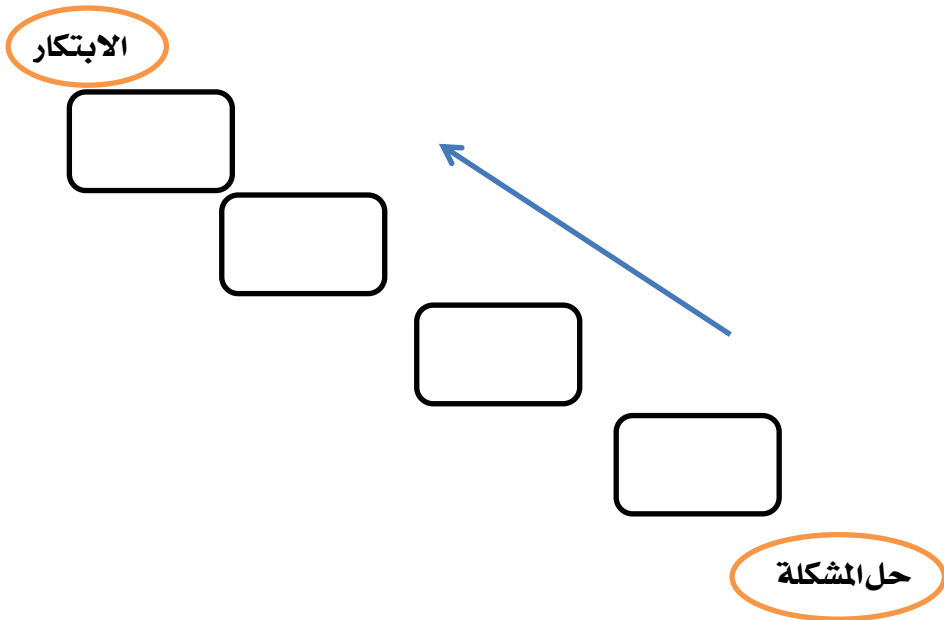
وانطلاقاً من هذه البدايات أخذت مجهوداتي في التزايد، لدرجة أنني أصبحت الآن أشغل منصب مستشارة لمجلس المنح الدراسية لرعاية المرأة بإحدى كليات الفنون الحرة، كما أنني مشاركة أيضاً في صندوق لجمع التبرعات الخاصة بالمنح الدراسية للسيدات ذوات الدخل المنخفض اللاتي لديهن قدرات عالية، وهذه الأشياء قد لا تبدو كثيرة للبعض، لكنني أرى farkاً ضخماً يمكن أن تحقّقه في حياة سيدات حالتهن مثل ما كانت حالتي، ولأنني تلقيت الكثير من المساعدة طوال الطريق من أناس يشعرون بأنهم يفعلون أشياء صغيرة؛ لذا أرجو أن تكون الأشياء الصغيرة التي أقدمها للآخرين بمثابة شكر مني لكل من ساعدني، كل هذا كان له أثر إيجابي على عائلتي أيضاً، فابني -الذي يدرس الآن درجة الماجستير- يعمل في وظيفة تمكنه من مساعدة المعاقين، وهو يشعر بالتزام شديد تجاه أولئك الناس وتجاه رعايتهم اجتماعياً، وابنتي -وهي في السنة الدراسية الأولى بالكلية- تعمل كمدرسة متطوعة للغة الإنجليزية كلغة ثانية للقادمين من دول لا تتحدث الإنجليزية، كما أنها ملتزمة للغاية أيضاً تجاه المقعدين، فكلاهما يبدو أن لديه إحساساً بالمسؤولية تجاه مساعدة الآخرين، ولديهما أيضاً وعي عميق بأهمية المساهمة، ويسعيان بنشاط نحوها، كما أن زوجي يعمل مستشاراً قانونياً، وهو ما يتيح له فرصة دائمة لخدمة الناس أيضاً بشكل شخصي للغاية.

أتصور أنني لم أفكر في هذا حقيقة من قبل، ولكن كما أنظر إليه الآن فإنني أعتقد أن أسرتنا بكاملها -بشكل أو بآخر- تخدم وتساهم في المجتمع ككل، وهذا يجعلني أشعر كما لو أن رؤيتي تحسنت أمامي بشكل أكثر اتساعاً واكتمالاً عما كنت أفهمه أصلاً (وهذه درجة المغزى من الأسرة)، وأعتقد أن مساعدة الآخرين هي أعظم مساهمة يمكن لأي فرد أن يقدمها في الحياة، وأنا ممتنة لأننا تطورنا إلى الحد الذي أصبحنا فيه قادرين على القيام بهذه المساهمة وتقديمتها.



لنفكر فقط في مدى الاختلاف الذي أحدثه نشاط هذه المرأة في حياتها وحياة أفراد أسرتها وحياة كل أولئك المستفيدين من مساهماتها، ياله من تقدير وإجلال لمدى قدرة الروح الإنسانية على التكيف مع الواقع وتحمل الظروف، فبدلاً من السماح لظروفها بأن تقهر الرؤية الموجودة بداخلها والحلم الذي طالما تمتته، فإنها تمسكت بها وبه ونمتها إلى أن أصبحتا في نهاية المطاف هما القوة التي حفّزتها لترتفع فوق هذه الظروف، ولاحظ - في إطار هذه العملية - كيف انتقلت هي وأسرتها عبر كل درجة من هذه الدرجات الأربع: البقاء / الاستقرار / النجاح / المغزى.

الوجهات



أولاً: البقاء؛

بداية كان القلق المسيطر على هذه المرأة يمثل الحاجة الأساسية، ألا وهو الطعام، فقد كانت جائعة، وكذلك كان طفلها، وكان محور حياتها الأساسي في هذه المرحلة هو أن تعمل بما يكفي لإطعام ولدها ونفسها؛ حتى لا يموتا جوعاً، فتلك الحاجة للبقاء كانت أساسية



وجذرية ومحورية للغاية؛ لدرجة أنها عندما تغيرت ظروفها كانت لا تزال مسيطرة عليها فكرة مكافحة هذا الوحش المسمى الجوع، ولم تتمكن أن تجعل هذه الفكرة تغيب عنها.

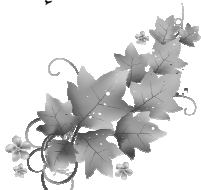
فهذه تمثل أول درجة (البقاء)، والعديد من الأسر والزيجات تكافح من أجل البقاء كأسرة، ليس فقط اقتصاديًا ولكن عاطفيًا واجتماعيًا أيضًا، فهؤلاء حياتهم مليئة بالخوف وعدم اليقين، فهم يتدافعون لتحقيق هذا البقاء خلال اليوم، فهم يعيشون في عالم من الفوضى بلا مبادئ يعملون من خلالها، وبلا أي أجندة أو هياكل يمكن الاعتماد عليها، وبلا أي توقع لما قد يحمله الغد لهم، وهم غالبًا ما يشعرون أنهم ضحايا الظروف أو ظلم الآخرين، ويستسلمون لهذا الإحساس، فهم مثل الشخص الذي دفع به إلى حجرة الطوارئ، ثم تم إلحاقه بوحدة العناية المركزية، فإشاراتهم الرئيسة قد تكون موجودة لكنها غير مستقرة، ولا يمكن التنبؤ بها.

وفي نهاية الأمر ربما تقوم هذه الأسر بشحن مهارات البقاء الخاصة بها، حتى أنهم ربما يختصرون فترات التقاط أنفاسهم خلال جهودهم من أجل البقاء، ولكن هدفهم الأول والأخير -ببساطة- هو البقاء أحياء، أو الحفاظ على الأسرة من التفكك بالطلاق، أو بمغادرة أحد الأبوين، أو بمغادرة الأولاد لمنزل أبويهم.

ثانيًا: الاستقرار؛

بالعودة إلى القصة ستلاحظ أنه نتيجة مجهوداتها ومساعدة الآخرين، انتقلت هذه المرأة من مرحلة البقاء إلى مرحلة الاستقرار، فقد أصبح لديها الطعام وضروريات الحياة الأساسية؛ من علاقة زوجية مستقرة، وحالة مادية ميسرة، وعلى الرغم من ذلك كانت لا تزال تصارع مخاوف أيام البقاء، ولكنها وأسرتها أصبحوا أكثر فاعلية.

كل هذا يمثل المستوى الثاني، وهو ما تحاول العديد من الأسر والزيجات تحقيقه، فهم يعيشون معًا، لكنهم مختلفون إزاء جدول الأعمال والتقاليد الأسرية، وهذا يسفر عن الصعوبات حتى في التقائهم معًا للحديث عما يجلب المزيد من الاستقرار للزوج أو للأسرة، فهم يعيشون في حالة من اللاتنظيم، ولا يعرفون ما الذي يتعين عليهم عمله، فلديهم إحساس بعدم جدوى محاولاتهم، ويشعرون أنهم محاصرون.



ولكن مع ازدياد المعرفة التي يكتسبها هؤلاء الأفراد، وبازدياد الأمل لديهم، ونتيجة لتصرفهم بناء على هذه المعرفة، مثل البدء في تنظيم بعض الجداول وهياكل الاتصال وطرق حل المشكلات، فإن المزيد من الأمل سوف يتحقق، وسيغلبون على اللاجدوى والجهل، وستصبح الأسرة والحياة الزوجية مستقرة، ويمكن الاعتماد عليها وقابلة للتنبؤ .. إذن يصبحون مستقرين، ولكنهم لم يحققوا النجاح بعد، فهناك درجة ما من التنظيم تسمح بتوفير الطعام وسداد الفواتير، ولكن إستراتيجية حل المشكلات دائماً مقتصرة على بديلين اثنين: اهرب أو واجه، فحياة أفراد الأسرة تتصل من وقت لآخر من أجل التعامل مع أكثر المسائل وطأة، ولكن ليس هناك عمق حقيقي في الاتصال معاً ومع الناس بصفة عامة، ويجدون إشباعهم بعيداً عن الأسرة، فالمنزل هو مجرد مكان يقيمون فيه، فداخل المنزل يوجد الضجر، كما أن الاعتماد المتبادل بين أفراد الأسرة شيء مرهق لهم، فليس هناك إحساس بالمشاركة في الإنجاز، ولا توجد سعادة أو حب أو بهجة أو سلام حقيقي.

ثالثاً: النجاح:

أما المستوى الثالث -وهو النجاح- فإنه يعني تحقيق الأهداف ذات القيمة، هذه الأهداف قد تكون اقتصادية: كتحقيق المزيد من الدخل، أو إدارة الدخل بشكل أفضل، أو خفض الإنفاق والادخار أو التعليم المستقبلي للأولاد، أو القيام بإجازة لأماكن رائعة، وقد تكون هذه الأهداف عقلية، مثل: تعلم مهارات جديدة، أو الحصول على درجات عملية، وسوف تلاحظ أن معظم الأهداف المشار إليها في قصة المرأة تدور حول هذين المجالين، فقد كانت الأهداف في هذه القصة ذات بعدين: اقتصادي وتعليمي، لكن الأهداف قد تكون اجتماعية أيضاً، مثل: قضاء المزيد من الوقت معاً -كأسرة- في إطار اتصال جيد، أو الارتباط بتقاليد جيدة، وربما تكون الأهداف روحية: مثل خلق إحساس مشترك بالرؤية والقيم المشتركة، وتجديد الإيمان والعمل لهذا الدين.

في داخل الأسر الناجحة يضع أفراد الأسرة ويحققون أهدافاً ذات قيمة، فالأسرة تهتم أفرادها؛ ولذا يجدون سعادة حقيقية في التجمع معاً، وهناك إحساس بالثقة بينهم، فالأسر الناجحة تخطط وتنفذ أنشطة عائلية، وتنظم أفرادها من أجل إنجاز مهام مختلفة، فتركيزها



يكون على تحسين نوعية الحياة، وصولاً لحياة أفضل، ولحب أفضل، ولتعليم أفضل، وعلى تجديد الأسرة عبر أنشطتها المختلفة، وعبر المرح وتقاليدها الأسرة.

ولكن حتى في العديد من الأسر الناجحة هناك بعد مفقود، فبالعودة مرة أخرى لقصة المرأة نجد أنها قالت: لوقت ما كنت مشغولة للغاية في عملي ورعاية أسرتي، واعتقدت أنني فعلتها؛ فقد حصلت على درجتي العلمية، وأصبح لدي أسرة ناجحة، ولكن حينئذ أدركت أن رؤيائي تشمل مساعدة الآخرين، وأن ذلك لم يكن قد أصبح جزءاً من حياتي بعد.

رابعاً: المغزى من الأسرة:

المغزى هو المستوى الرابع وهو أعلى المستويات، وهو حين تكون الأسرة منخرطة في شيء ما ذي قيمة خارج إطارها، فمن مستوى أن تكون الأسرة ناجحة فإن الأسرة يتكون لديها إحساس بالمسؤولية إزاء المجتمع أو الأسرة الأكبر أو حتى الجنس البشري .. إن مهمة الأسرة في المستوى الرابع تشمل نوعاً ما من التراث ربما يصل لأسر أخرى قد تكون على المحك، وتشمل أيضاً اشتراك أفراد الأسرة معاً لإحداث تغيير حقيقي في المجتمع الأكبر، ومن الممكن أن يتم ذلك عن طريق المسجد أو جمعيات خدمة المجتمع أو النوادي الاجتماعية، فهذه المساهمة تسفر عن إنجاز أعمق وأسمى، ليس فقط لأفراد الأسرة - كأفراد - بل للأسرة ككل، فالمرأة في هذه القصة شعرت بإحساس من المسؤولية، وبدأت المساهمة في تحسين حياة وظروف الأخريات، ولأنها أصبحت قدوة فإن أولادها طوروا هذا النموذج في حياتهم.

إن الأسرة - وبشكل مثالي - قد تصل إلى نقطة يكون فيها الإحساس بالمسؤولية جزءاً لا يتجزأ من بيان مهمة الأسرة، وهو شيء تتفق الأسرة أن تنخرط فيه بكاملها، وقد يعني هذا - في بعض الأحيان - أن أحد أفراد الأسرة سيقوم بمساهمة مجتمعية ما بشكل خاص، فقد اتفقوا جميعاً على مساعدة الزوجة عندما أصبحت رئيسة منظمة لخدمة المرأة، وكانت تمضي ساعات طويلة في العمل بهذه المنظمة، وحاولوا في أوقات أخرى إمداد بعض أولادها بالتأييد والتشجيع عندما اختيروا ليكرسوا أنفسهم للعمل لخدمة الكنيسة في القادمين من البلاد الأجنبية .. لقد شعروا جميعاً بإحساس من الوحدة والمساهمة في الخدمة على مر السنين، ويقر كوفي بأن أسرته ساندته كثيراً في عمله، ثم قام هو فيما بعد بمساندة بعض أعمال أولاده



في مركز كوفي للقيادة، ويقول: إن كل هذه الأشياء كانت عبارة عن مجهودات أسرية، على الرغم من أنه ليس كل أفراد الأسرة كانوا مشاركين مباشرة في الاضطلاع بهذه المساهمة.

وهناك أوقات أخرى كانت أسرته بكاملها منخرطة بشكل مباشر في شيء ما، مثل أحد مشروعات المجتمع، وهو على معرفة بإحدى الأسر التي تعمل معًا للقيام بالزيارات، وتوفير شرائط الفيديو للمسنين في دور المسنين، وقد بدأ الأمر عندما تعرضت جدتهم لجلطة أرغمتهم على إلحاقها بدار المسنين!! وبدأ أن الشيء الوحيد الذي تستمتع به حقيقة هو شرائط الفيديو؛ لذا فقد قررت هذه الأسرة زيارتها مرة أسبوعيًا على الأقل، وإحضار عدد من شرائط الفيديو القديمة المتنوعة من نادي الفيديو، وبدأ أن الأمر نجح بالنسبة للجددة والمرضى الآخرين الذي كان لهم نصيب أيضًا من هذه الشرائط، وطوال سنوات كان أطفال الأسرة الخمسة عبارة عن مراقبين واصلوا الخدمة للمسنين على هنا المنوال، ولم يساعد هذا الأولاد على البقاء بقرب جدتهم فقط؛ ولكن ساعدهم أيضًا في خدمة الآخرين من كبار السن.

وهناك أسرة أخرى تقضي عشية كل رأس سنة جديدة في تحضير الطعام للمشردين، ثم توزعه عليهم، ولكن المدهش في الأمر أنه خلال كل هذا نجد أن هذه التقاليد هي الأشياء التي نذكرها ويذكرها أطفالنا عندما يكبرون، وهي الروابط التي تربطنا وتوحدنا وتجددنا كعائلة.. إنها تجددنا اجتماعيًا وعقليًا وبدنيًا وروحيًا، ونتيجة لهذا التجديد نصبح قادرين على العودة بنشاط لمواجهة تحديات الحياة اليومية.

ويحكى أحد الأزواج تجربة إنسانية رائعة عندما أصيب أبوه بورم في المخ في نهاية 1989، وعلى مدار أحد عشر شهرًا كانوا في صراع مع هذا المرض بالعلاج الكيميائي والإشعاعي، وفي النهاية وقرب نهاية 1990 لم يعد والده قادرًا على العناية بنفسه، وأمه التي كانت في السبعين لم تعد قادرة على إعطائه المساعدة التي يحتاجها؛ لذا فقد واجه هو وزوجته بعض القرارات الحاسمة، وبعد مناقشتها معًا قررا استضافة أبيه وأمه في منزلها -بدلاً من إيداعه دارًا للمسنين- ووضعوا أباه على سرير مستشفى في وسط حجرة المعيشة الخاصة بهما، وهو المكان الذي ظل فيه طوال الأشهر الثلاثة التالية حتى توفي.



يقول هذا الزوج: «وأنا أدرك الآن أنه ما لم يكن لدينا مبادئ راسخة، وفهم واضح لما تعنيه الأشياء الأولية في حياتي ربما لم أكن قد اتخذت مثل هذا القرار، وعلى الرغم من أنها كانت فترة من أصعب فترات حياتي، فقد كانت أيضًا أحد أكثر الفترات قيمة لي؛ فأنا أشعر أنه بمقدوري الآن أن أنظر للوراء، وأعرف أننا فعلنا الشيء الصحيح الذي كان يتعين علينا فعله في مثل ظروفنا .. لقد فعلنا كل ما بوسعنا كي نجعله يشعر بالراحة، وأعطيناه أفضل ما يمكن إعطاؤه من الناحية الإنسانية .. أعطيناه أنفسنا، وشعرنا إزاء ذلك بشعور طيب، فالمودة والألفة التي كنا قادرين على تنميتها مع والذي خلال تلك الأشهر الأخيرة كانت عميقة.

ولم نكن أنا وزوجتي فقط من تعلموا من هذه التجربة؛ بل وأمي أيضًا، فقد علمت أن بوسعها أن تتطلع للمستقبل بثقة، وأن تثق في مدى تعاملنا مع الموقف إذا مرت بوضع مشابه، وتعلم أطفالنا دروسًا لا تقدر بثمن في بر الوالدين، وفي الخدمة؛ لأنهم شاهدوا ما فعلناه أنا وزوجتي، وقد ساعدوا بعدة أمور حسب استطاعتهم .. إن مساهمة الأسرة خلال الأشهر القليلة تلك تمثلت في مساعدة أب وجد طريقه للموت بكرامة محاطًا بالحب، يالها من رسالة قوية تلك التي أرسلت إلى أمه ولكل فرد آخر من الأسرة .. رسالة للأولاد وهم يكبرون وبدخلهم إحساس من الحب والعطاء الأصيل، ورسالة حتى إلى أولئك الذين يعانون من تلك المواقف الصعبة، وهي أنهم يمكنهم أن يخلفوا وراءهم تركة من الإلهام لأسرهم.

فحياتي الخاصة تأثرت بشكل عميق -يقول كوفي- بالمثل الذي ضربته أختي في العطاء والمغزى وهي راقدة على فراش الموت مصابة بمرض السرطان، فقبل ليلتين فقط من وفاتها قالت له: «إن رغبتى الوحيدة خلال هذه الفترة هي تعليم أولادي وأحفادي كيف يموتون بكرامة، وأن أمنحهم الرغبة في العطاء، وعيش الحياة بنبل قائم على المبادئ، وكان كل تركيزها خلال الأسابيع والشهور السابقة لهذا الوقت منصبًا على تعليم أولادها وأحفادها، وقد علمت أنهم سوف يلهمون ويشعرون بالفخر نتيجة قدوتها، لبقية حياتهم، وهذا ما حدث لي فعلاً».



إن ثقافة الأسرة بأسرها عندما تعمل من أجل مساعدة أولئك المتورطين جدًا، وتمكنهم من استثمار تراثهم .. ستكون عندئذٍ ثقافة ذات مغزى، وبإمكان الأسرة أن تصبح مشاركة في المدارس في برامج خدمة المجتمع، أو في هذه البرامج نفسها من خلال الجمعيات، مثلاً لزيادة الوعي بأخطار المخدرات، أو للحد من الجريمة، أو مساعدة الأطفال من الأسر المفككة أو ذوي الاحتياجات الخاصة، وبوسعهم المشاركة في جمع التبرعات، ووضع البرامج ومتابعة المرضى وكبار السن، أو أي خدمات أخرى تقدمها دور العبادة، كما يمكنهم أيضًا المشاركة بشكل ذي أهمية في مستوى أعلى من الاعتماد المتبادل، ليس فقط في إطار الأسرة الواحدة فحسب؛ بل بين الأسر ذات المشروعات المشتركة، أو الانضمام لمنظمات المجتمع المدني التي تشكل قوة العمل الأهلي داخل المجتمع، والانضمام للمشروعات والأنشطة التي ترعاها.

فهل يمكنك تصور أي شيء يكون أكثر تنشيطاً وتوحيداً وإشباعاً أكثر من العمل مع أفراد أسرتك لإنجاز شيء ما من شأنه حقيقة أن يحدث اختلافًا في بلدك وفي العالم؟ هل يمكنك تصور الترابط والإحساس بالإنجاز، والإحساس بالمشاركة في البهجة؟ إن هذا يتحقق عندما تتعاون الأسرة -مثلاً- في مجال الدعوة لدين الله؛ فالدعوة إحساس بالمسئولية عن العائلة الأكبر والجيران والأصدقاء من أن يؤدي بعدهم عن الدين إلى عدم وصولهم لرضا الله تعالى، والدعوة برفق بكل هؤلاء، والأخذ بحجزهم بعيدًا عن السقوط في النار، والدعوة اتباعًا لما أمر به الله عندما قال في سورة يوسف في الآية 108: ﴿قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي...﴾، وإذا اشتركت الأسرة كلها في نشاط الدعوة إلى الله، فسوف تصل إلى هذه المستويات العالية جدًا من التنشيط والتوحد والإشباع والترابط والإحساس بالإنجاز، والإحساس بالبهجة عندما يهدي الله بك رجلاً / امرأة واحدًا.

إن العيش خارج أنفسنا في حب يساعد الأسرة فعليًا على أن تصبح خالدة الحب والترابط، فعطاؤها الشديد يزيد من إحساس الأسرة بالهدف، وبالتالي يزيد من طول عمرها وقدرتها على العطاء، ويقول هانز ستايل -أبو الأبحاث الحديثة الخاصة بدراسة الضغط العصبي: «إن أفضل سبيل للبقاء أقوى وأصحاء متمتعين بالحياة، هو اتباع النصيحة القائلة: اكسب حب الجار. فسيحان الله، كيف كان جبريل يظل يوصي الرسول ﷺ على الجار، حتى



ظن أنه سيورثه. لقد أثبت أبو الأبحاث الحديثة أن أفضل سبيل للبقاء أقوياء وأصحاء هو كسب حب الجيران؛ ولذلك فالنصيحة الغالية لأي أسرة هي أن تبقى مشاركة في المشروعات المؤدية إلى ذلك الهدف، وأن تضع نصب عينها تقديم الخدمة، وأوضح هانز ستايل أيضًا أن السبب وراء طول عمر المرأة أكثر من الرجل سبب نفسي أكثر منه فسيولوجي، فعمل المرأة لا ينتهي أبدًا، فمسئولياتها تجاه الأسرة لا تنتهي ببلوغها سن الستين، ومساعدتها لجيرانها، ولكل من تحس أنهم بحاجة إليها، فطرة وقاعدة ثابتة على كوكب الزهرة الذي تنتمي إليه النساء، ولكن على الجانب الآخر العديد من الرجال يركزون حياتهم على عملهم؛ أما عائلاتهم فتأتي في المرتبة الثانية، ولذلك فعندما يتقاعدون لا يكون لديهم نفس الإحساس باستمرار الخدمة والمساهمة الذي لدى زوجاتهم، ونتيجة لذلك يتم تنشيط القوى الهدامة داخل أجسادهم، وبالتالي يتعرض النظام المناعي للخطر؛ لذا يموت الرجال مبكرًا بعد الخروج للمعاش، إلا من رحم ربك ممن لا يتوقف عطاؤهم بعد الستين، وبالذات ممن يعملون في مجال الخدمة العامة ومجال الدعوة.

فلا شيء ينشط ويوحد ويشيع الأسرة مثل العمل معًا لإنجاز مساهمة ذات مغزى؛ فهذا هو هدف الأسرة الأسمى وعملها القيادي، ليس فقط القيادة التي يمكنك منحها للأسرة؛ بل القيادة التي يمكن أن توفرها أسرتك ككل للأسر الأخرى، وإلى الحي والمجتمع والبلد كله، فعلى مستوى المغزى لم تعد الأسرة غاية في حد ذاتها، ولكن تصبح هي الوسيلة لغاية أعظم من ذاتها، وتصبح هي العربة التي يمكن للناس من خلال مساهمتهم بفاعلية إسعاد الآخرين.

من حل المشكلة إلى الابتكار:

عندما تتحرك صوب وجهتك كعائلة ربما تجد أنه من المفيد أن تراجع تلك المستويات الأربعة الممينة في الرسم كدرجات مؤقتة على طريقك، وتحقيق كل مستوى يمثل تحديًا، ولكنه يوفر الأرضية التي يمكن على أساسها الانتقال للدرجة التالية، ونحن على وعي أنه عند الانتقال من مرحلة مجرد البقاء إلى مرحلة أن تكون أسرة لها مغزى في الحياة، فإن ذلك يعني حدوث تحول كبير في تفكير الأسرة، ففي مرحلتي البقاء والاستقرار تتركز الطاقة العقلية على حل المشكلة: كيف يمكننا توفير الطعام والمأوى؟ كيف يمكننا حل مشكلة الابن فلان



المراهق؟ وما هو العمل في تدني درجات الابنة فلانة؟ كيف يمكننا التخلص من المشادات في علاقتنا؟ كيف يمكن أن نسدد ديوننا؟

ولكن عند انتقال الأسرة إلى درجتي النجاح والمغزى فإن هذا يجعل الطاقة منصبة على خلق الأهداف والرؤى، والتي ستفوق - في نهاية الأمر - الأسرة ذاتها، وتتعدى محيطها إلى مجتمعها، في مجالات مثل: ما هي نوعية التعليم الذي نريد توفيره لأطفالنا؟ ما هي الصورة التي نريد أن يصل إليها وضعنا المالي بعد خمس سنوات؟ أو عشر؟ كيف يمكننا تقوية العلاقات الأسرية؟ ما الذي يمكننا عمله معاً كأسرة من شأنه أن يحدث اختلاف حقيقياً في مجتمعنا؟

وهذا لا يعني أن الأسر التي انتقلت إلى النجاح والمغزى ليس لديها مشكلات تحلها، بل لديها، لكن معظم طاقتها تركز حول الخلق والابتكار، فبدلاً من مجرد محاولة استئصال الأشياء السلبية من الأسرة فإنهم يركزون على ابتكار أمور إيجابية لم تكن موجودة سلفاً: أهداف جديدة، خيارات جديدة، بدائل جديدة ستعمل على تحسين الأوضاع بشكل كبير، وبدلاً من الاندفاع من حل أزمة بحاجة إلى حل لأخرى، فإن أفراد الأسرة يركزون على اللحاق بنقاط الانطلاق التعاونية من أجل تحقيق إنجاز مستقبلي، وباختصار: فإنهم يصبحون ذوي عقلية انتهاز الفرص بدلاً من عقلية حل المشكلات.

فعندما تكون ذا عقلية حل المشكلات، فإنك تنزع إلى استئصال شيء ما، أما عندما تكون ذا عقلية انتهاز الفرص أو عقلية لها رؤية، فإنك تريد ابتكار شيء ما للوجود، وهذا يُعد توجهاً ذهنياً مختلفاً تماماً، وتوجهها عاطفياً وروحياً مختلفاً كذلك، وبالتالي يؤدي إلى فهم وتوجه في ثقافة الأسرة مغاير تماماً.. إن الفرق بينهما مثل الفرق بين من يستيقظ محبطاً مستغرقاً في المخاوف، يحس بالإرهاق من الصباح إلى المساء، وبين الشعور بأنك مرتاح ونشط ومتحمس، فبدلاً من الشعور بالإحباط وأن تكون محاطاً بسحب سوداء من اليأس، فإنك تشعر بالتفاؤل والانتعاش وأنت ممتلئ بالأمل، وفي هذه الحالة ستكون مفعماً بالطاقة الإيجابية التي بدورها ستؤدي إلى حالة تعاونية إبداعية.

فبالتركيز على بصيرتك يمكنك أن تعمل على حل مشكلاتك بدون صعوبة.. الشيء الجميل في الانتقال من درجة مجرد البقاء إلى درجة المغزى في الحياة، هو الإحساس بأنه لا يحتاج إلا إلى القليل للغاية مما يحتاج عمله إزاء الظروف المحيطة.



قالت إحدى السيدات: «لقد اكتشفنا حينئذٍ أن الأمور الاقتصادية ستفعل القليل جدًا إزاء تحقيق المغزى لنا كأسرة .. الآن صار لدينا الكثير، وأصبحنا قادرين على عمل المزيد، ولكن حتى في السنوات الأولى من زواجنا كنا قادرين على منح وقتنا ومواهبنا للآخرين، وقد عمل هذا حقيقة على توحيدنا كأسرة، فعندما كان أطفالنا صغارًا جدًا كنا قادرين على تعليمهم قيمة مساعدة الجار، وزيارة العجائز في دور المسنين، أو زيارة مريض وإعطائه وجبة طعام، واكتشفنا أن هذه الأنماط من الأشياء هي التي ساعدت على إطلاق جيراننا اسمًا على أسرتنا - الأسرة التي تساعد الآخرين - وقد شكل هذا اختلافًا كبيرًا عندما كبر أولادنا.. لقد اقتنعت أن سنوات مراهمتهم كانت مختلفة تمامًا عن زملائهم؛ لأننا ربيناهم على مساعدة الآخرين وحب فعل الخير، وكانت هذه المساهمة الدائمة من جانبهم هي التي طورت شخصياتهم، وجعلتهم يتغلبون على مشكلات فترة المراهقة».

فالمشكلات موجودة في الأسر التي وصلت لدرجة المغزى، ولكنها تحل بسهولة؛ لأن أفراد الأسرة مشغولون بمساعدة الغير، ولديهم الإحساس بالإنجاز والرضا عما يفعلونه، بالإضافة إلى عون الله سبحانه وتعالى؛ لأن الله في عون العبد ما دام العبد في عون أخيه، وكما قالت هذه السيدة: ليس من الضروري أن تكون لديك إمكانات كثيرة ليتمكنك مساعدة الآخرين .. يمكنك أن تساعدهم بأفكارك ومواهبك وعطفك حتى إذا لم يكن لديك إمكانات مادية.

الخلاصة:

خلاصة ما أحاول توصيله للقارئ الكريم هو أنك بحاجة أن تجدد أسرتك، وكما تقول العادة السابعة: أن تجددتها باستمرار، وأن تسن المنشار حتى يظل حادًا ويقطع أسرع، ولكي تقوم بهذا التجديد لا بد أن تكون إيجابيًا وتبادر إلى العمل، وأن يكون الهدف واضحًا في ذهنك .. إن الإيجابية والمبادرة هي العادة الأولى، ووضوح الهدف من تجديد الأسرة هو العادة الثانية، وقد يكون الهدف هو الانتقال بأسرتك من مستوى مجرد البقاء إلى مستوى الأسر ذات المغزى في الحياة، التي ليست فقط ناجحة، ولكن نفعها يتعدى محيطها، بحيث تصبح نافعة للآخرين. وإذا رتبت أولوياتك بطريقة صحيحة فستكون أسرتك أهم من عملك، ستكون



أسرتك هي الأولوية الأولى في حياتك، وهذه هي العادة الثالثة، وإذا اقتنعت بذلك فلا بد أن تمارس مسئوليتك عنها، فكلكم راعٍ وكلكم مسئول عن رعيته، وتلك هي العادة الرابعة.

أما العادتان الخامسة والسادسة فيجب أن تقوم بهما معًا، بأن تفهم أفراد أسرتك أولاً، ثم تسعى لأن يفهموك، فإذا حدث هذا بالفعل فيمكنك أن تصل إلى التكاتف والتآزر الذي يؤدي إلى أن واحد زائد واحد يساوي ثلاثة أو أكثر، وهذا يوصلك إلى ما بدأنا به الخلاصة، وهو ضرورة الاستمرار في تجديد أسرتك في المجالات الأربعة: البدني والعقلي والاجتماعي والروحي، وقد اقترحنا عشرة أساليب يمكنك استخدامها ليستمر هذا التجديد، ويستمر سن المشار.

فإذا ما استمررت على ذلك، وفهمت أنه لا بد أن يتعدى نجاحك الأسرة، ويتعدى نفحك محيط أسرتك، فستكون في وضع الاستعمال كأسرة تساعد الآخرين وتخدمهم، وهذا هو المغزى الذي لا بد أن تطمح في الوصول إليه .. إن الأسرة هي اللبنة الأساسية في المجتمع، وإذا صلحت هذه اللبنة ثم قويت المونة (التماسك والتعاون بينها وبين غيرها من الأسر) حصلنا على جدار قوي، يمنع العواصف التي تريد أن تعصف بالأسرة؛ من إعلام فاسد وتعليم قاصر، وأصبحنا أكثر قدرة على توجيه الطائفة (الأسرة) إلى وجهتها على المسار السليم، مستخدمين البوصلة التي هي الهدى النبوي، الذي لم يترك صغيرة ولا كبيرة في مجال العلاقات الأسرية إلا ووجهنا فيها الوجهة الصحيحة، والضمير الذي ينتج من الإسلام (الاستسلام) لله سبحانه وتعالى.

وحيث إن الحكمة ضالة المؤمن التي إن وجدها فهو أحق الناس بها، فقد وجدت الكثير من الحكمة في كتاب العادات السبع للأسر الأكثر فاعلية لستيفن كوفي؛ حيث اقترح أن تعد كل أسرة بياناً بمهمة الأسرة، بياناً لفردين في بداية الزواج، ثم بياناً لأكثر من فردين بمشاركة الأولاد بعد 15-18 سنة من الزواج، ثم بيان الأسرة الممتدة بمشاركة الأحفاد بعد 30-35 سنة من الزواج، هذا البيان يحدد فيه الزوجان -ثم هما وأولادهما- الغرض من تكوين الأسرة وأهدافها، والأمنيات التي يريدون تحقيقها، مثل: العلاقة بين أفرادها، وكيف تكون الأسرة، والوجهة التي يريدون الوصول إليها، والتعاون والتكاتف بين أفرادها ... إلخ.

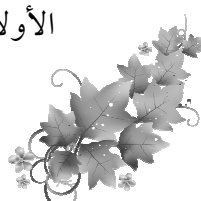


كما اقترح أيضًا أن يفتح كل فرد من أفراد الأسرة - وخاصة الزوج (الأب) - حسابًا في عواطف زوجته وأبنائه، يحرص على الإيداع فيه باستمرار، بالهدايا والكلام الجميل والاهتمام، بحيث يكون هناك دائمًا رصيد فيه، فإذا حدثت أي مشكلة وسحب من الحساب، يجد دائمًا رصيدًا يجعله يستعيد مكانته عند زوجته وأبنائه.

واقترح أن يحدد المرء - مع نفسه أولاً - أولوياته في الحياة، ويضع أسرته على رأس هذه الأولويات، فيحدد وقتًا أسبوعيًا للأسرة، يحافظ عليه في كل الظروف، ويكون هو المعين له على فهمهم ثم يجعلهم يفهمونه، ويحرص على التعاون والتكاتف معهم وعلى التآزر معًا؛ لعمل كل ما هو جميل وهادف في محيط الأسرة وخارجها، وهذا ما يجب أن تكون عليه ثقافة الأسرة، كما يحدد وقتًا لكل ابن من أبنائه - فوق العاشرة - على حدة؛ حتى يمكنه أن يصاحبه، وأن يشاركه أحلامه وآلامه، ويحاول أن يصل بهذا الفهم إلى التكاتف والتآزر بينه وبين أفراد أسرته، وصولًا إلى المكسب المشترك بينهم، وهذا في إطار من التجديد المستمر، من خلال العمل معًا، والخدمة معًا، والتعلم معًا، والصلاة في جماعة، والمرح معًا، وغيرها من أساليب تجديد الأسرة.

ووجدت أيضًا حكمة بالغة في محاولة جون جراي أن يفهم كل من الزوجين الآخر على أساس أنها من كوكبين مختلفين؛ فالرجال عمليون لا يساعدون الآخرين إلا إذا طلبوا منهم ذلك، ولا يصلحون الأمور إلا إذا تعطلت، أما النساء فهن عاطفيات يساعدن الأخريات دون أن يطلبن، ويحاولن تحسين الأمور وتجويدها حتى وإن كانت تعمل ولم تتعطل، فإذا فهم كل منهما الآخر كما هو، ولم يحاول أن يجعله أفضل، وإنما أن يجعله أسعد، فإن ذلك سيجعل كلًا منهما يفهم تصرفات شريكه كما ينويها لا كما يراها شريكه، وسيكون فاهمًا لما يريد شريكه ويكون مفهومًا له في الوقت نفسه، وقد استفدت من كتابات أساتذة التربية، وخاصة علم النفس التربوي، في محاولة شرح خصائص المراحل السنوية المختلفة - وخصوصًا مرحلة المراهقة - ومحاولة توضيح كيف يكون تعامل الآباء والأمهات معها؛ حتى لا تحدث جفوة بين الآباء والأبناء، ولا فجوة أجيال.

وأخيرًا، وجدت الحكمة البالغة في أحاديث الرسول الكريم ﷺ عن الزواج وعن تربية الأولاد وعن الرعاية والمسئولية، وخلاصتها: أنه يجب أن تكون غاية كل أسرة هي الوصول



إلى رضا الله تعالى، وأن الطريق إلى ذلك هو التوازن بين الأعباء الملقاة على عاتق الزوج والزوجة خارج وداخل المنزل، مع الإحساس بالمسئولية كونها راعيتين ومسؤولين عن رعيتهما، وفي الوقت نفسه فإن وصايا الرسول الكريم ﷺ في كيفية التعامل بين الزوجين كفيلة-إذا اتبعاها- بالوصول إلى المودة والرحمة التي من أجلها شرع الله الزواج أصلاً، وقمة الحكمة البشرية تلاقت مع الحكمة الإلهية في نهاية الأمر في أن الأسرة في أعلى مستوياتها وهي الأسرة ذات المغزى، هي الأسرة التي يتعدى نفعها محيطها، وهي التي تساعد الآخرين، وتكرم الجيران، وتكون نبراساً للعمل العام والعمل المجتمعي الهادف.

أسأل الله سبحانه وتعالى أن يكون هذا العمل خالصاً لوجهه الكريم، وأن يحس القارئ بالحاجة إلى أن يجدد أسرته اليوم قبل الغد، وأن تساعد العادات السبع الموجودة في هذا الكتاب في الارتقاء بأسرته، من مجرد البقاء إلى أن تكون أسرة ذات مغزى، يتعدى نفعها محيطها، وأن تزداد مناعة الأسرة ضد أمراض العصر وشيوع الفاحشة، ونصل إلى الأسرة الصحية القوية التي بترباطها وتعاونها وتراحمها نصل إلى المجتمع المترابط المتعاون الذي يقيم شرع الله، ويتعدى نفعه وطنه؛ لينشر خيره إلى العالم كله؛ لأنه كما قال علماؤنا: القدوة هي أكثر تأثيراً من أي كلام، وإذا رأى العالم مجتمعاتنا الإسلامية أسراً متحابية مترابطة لسعوا إلى هذا الخير، خاصة وأن من يقرأ كتباً عن وضع الأسرة في الغرب -كتاب كوفي- يحس بمدى ألم وحسرة من عاصروا أيام كانت الفضيلة هي السائدة في المجتمع، حتى وصلوا إلى أيام اعتبروا فيها أن المدرسة والمجتمع بيئة غير داعمة للأسرة، ليس هذا فقط؛ بل أصبح الناس فريقين من موضوع تكوين الأسرة ذاته: فريق داعم للأسرة يريد الحفاظ عليها، وفريق لا يرى ضرورة للزواج أصلاً، ويمكن أن يعيش الرجل والمرأة بغير زواج.

أسأل الله أن تكون أسرتنا نماذج يهتدي بها العالم الحائر، الذي يبتعد عن تعاليم السماء بخصوص الأسرة بسرعة، ولن يكون ذلك إلا إذا جددنا أسرتنا باستمرار بالحب والتعاون والتكاتف، باسترشاد تعاليم السماء وهدى رب العالمين.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين

